أربعون الرسامة الجزائرية باية محي الدين

> في ذكرى "أربعين" الرسامة الجزائرية باية محي الدين، التي رحلت في 9 كانون الأول نوفمبر أقيمت معارض عدّة تكريماً للرسامة الفقيدة. في مدينة وهران غرب الجزائر أقيم تكريمان الأول نظمه رسامون محليون يستقون أعمالهم من أجواء باية. والمعرض الثاني كان في متحف أحمد زبانة وعرضت فيه 33 لوحة للرسامة الراحلة وبالموازاة قدمت مداخلات عن الفنانة وأعمالها، من بينها مداخلة خاصة لإبنها. وكان قد تم تنظيم معرض في وزارة الثقافة الجزائرية وتحت إشرافها، ضم أعمالاً للفقيدة الى جانب لوحات لفنانين جزائريين آخرين.

والرسامة الجزائرية الراحلة باية محي الدين هي واحدة من الأسماء المتميزة في الفن التشكيلي، ليس في الجزائر والوطن العربي فحسب بل في العالم. استطاعت باية أن تقفز فجأة الى مشهد الفن التشكيلي العالمي وتحتل مكانة لافتة وهي لم تزل مراهقة في السادسة عشر من العمر، كان ذلك سنة 1947 بمعرضها الأول في قاعة ماغ في باريس. خلخلت باية فضاء فن الرسم المطمئن منذ عصر النهضة الأوروبية بريشتها العفوية الزاهية والباهرة بألوانها. وهزت لوحاتها المائية الوسط الثقافي والفني في باريس آنذاك، وفي مقدّمه زعيم السرياليين الشاعر أندره بروتون وفنانون مرموقون من أمثال بيكاسو وماتيس.

ولدت باية محي الدين في 12 كانون الثاني ديسمبر 1931 في برج الكيفان. فقدت والديها باكراً وهي في الخامسة فتكفلت بتربيتها جدتها. عندما بلغت العاشرة تبنتها سيدة فرنسية تدعى مارغريت كامينا، وهي رسامة، كانت تشتغل على الحرير وكان زوجها الإنكليزي رساماً كذلك. تأثرت الصغيرة باية بهذا الجو الفني، فكانت ترسم خلسة عن والديها بالتبني، إلى أن اكتشفتها أمها مارغريت فراحت توفر لها كل ضرورات الرسم وتحثها عليه. كان واضحاً منذ البداية ان اسم باية نسبة الى "باي" وهو لقب تركي على غرار باشا، خاص بحكام الولايات أيام الحكم العثماني للجزائر كان سيكون مواتياً لها... فمن أول انزلاقات فرشاتها البريئة كانت تحمل بوادر أن تكون "باية" الرسم الجزائري؟... في 1947، جاء "ماغ" الى الجزائر والتقى بالرسام جون بايريسياك، الذي كان عرض له في قاعته الباريسية. فعرفه بايريسياك على رسومات باية التي كانت قد أهدتها له أمها، فانبهر "ماغ" بأعمال باية. وقام بتنظيم أول معرض في قاعته لأعمالها وكانت تبلغ السادسة عشرة آنذاك. حقق المعرض نجاحاً كبيراً وأثار إعجاب جمهور فني عارف ومتذوق في قطب ثقافي كبير كباريس آنذاك. ومن الأسماء الكثيرة، التي كتبت عن معرض باية وعبرت عن انبهارها به آنذاك نجد مثلاً أندره بروتون، براك، ماتيس وبيكاسو. وممّا قال بروتون "فرصة استثنائية جعلت وبفضل باية، أن يترافق أمام أعيننا التياران اللذان يغذيان الشعر واللذان منحت فرصة فريدة لشخص رهيف ولكن محظوظ لاكتشافهما في منبع مشترك. فرصة جد مواتية، سمحت بالفعل لهذا الظهور المتألق تحت سماء مكفهرة لكانون الأول ديسمبر من عام 1947 في باريس - باية كانت في الداخل كما في الخارج مشعة بكل سحر بلادها - ... من اليقين أن أجواءها عابقة بعطور ألف ليلة وليلة... ... بأية منّ مهمتها، إعادة الاعتبار لمعنى كلمتين نحنّ اليهما: "العالم العربي السعيد...".

إضافة الى الرسم، اشتغلت باية على الطين وأنجزت العديد من الأعمال الفخارية. وكان مختبرها يقع الى جانب مختبر بيكاسو، الذي أمضت معه شهراً كاملاً سنة 1948 بمنطقة مادورا في باريس. في سنة 1953 قامت عائلة باية الجزائرية بتزويجها من الحاج محفوظ الذي كان يكبرها سنوات، فانتقلت الى العيش مع زوجها الفنان الموسيقي الأندلسي، بمدينة البليدة خمسين كيلومتر عن الجزائر العاصمة.

توقفت باية، عن الرسم ما يقارب عشر سنوات وتفرغت لرعاية زوجها وأولادها. ولم تعد للرسم إلا بعد سنة 1991. ومنذ ذلك التاريخ لم تتوقف عن الأبداع إلا عند رحيلها في 9 كانون الأول 1998، وإذا كان هناك جانب يجب ألا يُهمل عندما يتم الكلام عن الفنانة الراحلة، فهو أن الظروف العائلية لم تساعدها للحفاظ على قوة انطلاقتها منذ معرضها الأول وإذا

قارنا تميز أعمالها بعدد المعارض التي خصصت لها طيلة مشوارها، للاحظنا أن هناك تقصيراً كبيراً. ولعل القيمة الفنية لأعمالها لم تلق المقابل المادي المشروع والمفترض مقارنة بما يحصل في سوق الفن العالمي.